الفصل

٥

المعاذير التي لا نلاحظها أبداً

١- المعاذير التي تكون «من القلب إلى القلب»:

لقد وصفت فيما سلف طرائق سلوك العاملين معاً في الجهات الرسمية. وعلى الجانب المقابل، جانب مقدمي الطلبات والالتماسات، يقع بعض هؤلاء ضحية شبكة «الجولة التي تبعث على الرثاء»، والتي تمثل تكتيكاً لا شعورياً، حتى يتم بذلك تنبيه الشعور بالمصلحة أو الاهتمام عند رجل يقعد وراء مكتبه.

«هل تعلم، حين كانت لديَّ، قبل ثلاث سنوات أول عملية جراحية- لدى الدكتور س، هنالك كان هذا سيئاً للغاية، ولم يكن هناك بدٌّ من القيام به في العام الماضي وكنت هنا «لدى الدكتور (ع)، واستغرق هذا أربعة أشهر قبل أن أعود قادراً على العمل من جديد، وهذه الآلام... ثم ألمَّ بزوجي مرض شديد ... ولم أكن فكرت على الإطلاق في أنه سيكون عليّ تسوية هذا المبلغ. والآن يفترض فيَّ أن أدفع غرامة، فهل يمكن للمرء عندئذٍ، في هذه الحالة...» وبذلك يريد المتحدث أن يعتذر عن فوات أوان دفعةٍ ما، وأن يصرِّح بتذكير مُلِحٍّ... إنه هذا الذي نسميه بالعذر الاضطراري. ومن المؤسف أنه يكون على الأغلب غير ذي طائل. أما الرجل القاعد وراء الكوَّة، فيظلّ يسمعه إلى حدٍّ مفرط، على أنه لا يثير اهتمامه أيضاً، ولديه التعليمات الخاصة به.

وفي بعض الأحيان - ولكن في النادر فحسب - تفيد طريقة «الضغط على قلوب الأعداء» من حيث كونها عذراً. «وعلى هذا فأنت أملي الأخير! وإذا لم تسعفني فلست أدري ما ينبغي لي عمله، فأنا عاجز لا حَوْل لي أبدا في هذه المسألة! ولكنك تتمتع بالكثير من النفوذ، وإنَّ كلمة منك لخليقة...».

والرجاء أن لا تستعمل هذا إلا في الحالات النادرة إلى أقصى الحدود!

ولا تستعمله إلا وأنت وحدك، في حجرة من دون شهود!

أما محاولات الرشوة فأفضل ما تفعله أن تشطبها شطباً كاملاً من سجلّك - فإن هذا يسير عندنا، نحن المواطنون المتوسطون سيرة معوجَّة على الدوام تقريباً! ولذلك ينبغي أن تتوافر لديك غريزة جيدة تماماً - ومعرفة بالبشر يمكن الاعتماد عليها! ذلك لأن المبدأ المتمثل في قولنا» أنت امرؤ جدٌّ كبير، وأنا جدّ صغير، يعدّ هنا حيلة من حيل المعاذير يُقصد بها إلى تسوية ألوانٍ من التفويت والتقصير الخاص.

وربّما رنّ لديك الآن جرس صغير؟

إنه أنموذج توم وجيري الذي يطبّق في مجال الحياة الخاصة تطبيقاً كثير التواتر، وبنجاح، وحتى أليكس الصغير يقول بقلب مخلص، ورجاء: «عجباً يا أمَّاه، أنا لم أكن أريد هذا، ولم أقصده على هذا النحو، فأنا أحبك حباً جماً!».

ولكنه قصد إلى هذا بالطبع، ولم يقصده على نحوٍ مختلف - في تلك الأيام! وفي تلك الأيام لم يكن يحب أمه أيضاً، على الإطلاق، لأنها كانت تحجز عنه الهاتف الجوَّال، عقاباً له. غير أنه يحبها الآن أيَّما

حب. كي يحصل على الهاتف الجوال من جديد. وحين كان في الطائرة اجتاز الفترة الزمنية التي وجد فيها «هذه الأم الرديئة»، مُنَفِّرَةً لا تُحتمَل، وغطاها ونسيها، وهو يستخرج العذر الذي يكون «من القلب إلى القلب» ليكون الاعتذار الأخير الأكثر توكيداً.

وما أدركه الصغير أليكس في مرحلة جدّ مبكرة وتعلَّمه - ألسنا نفعله على نحوٍ مطرّدٍ منتظم في أضيق دائرة من دوائر الأسرة والأصدقاء؟

«إنّي لأحبك حباً جماً»

«أنا أقدرك أيَّما تقدير»

«لقد كنت على حق، كشأنك دائماً! لماذا عاملتك هذه المعاملة السيئة؟

«لا أعرف على الإطلاق كيف أستطيع أن أصدِّق هذا منك!»

وهذه التوكيدات تعدّ - لدى البشر الذين نألفُهم ونركن إليهم، أفضل المعاذير لتسوية الأخطاء وتلافيها، والتعويض عن سوء التصرّف وكثيراً ما تكون هي الإسعاف الأخير في موقف آخذٍ في التردّي.

والرجاء أن تلاحظ: الآن يرى المعنيّون بالمسألة أن هذا صادق كل الصدق ومقنعٍ تماماً! وعلى كل حال فهو يتسم بهذه السمة على الأغلب. إنها الاعتذارات عن لحظات من الغضب وخيبة الأمل رمى فيها المرء رَميته بالكلمات والأفعال، في تجاوزٍ لهدفه، وضربٍ به عرض الحائط.

فكيف يجد المرء الطريق إلى العودة من جديد؟ الأم التي أغرقت في حزن عميق، والزوجة المجروحة في مشاعرها، والوالدان المهملان، والأصدقاء الذين اغتابهم - ماذا وضع المرء هنا في كفة الميزان، مغامراً به! وكيف يستعيد المرء كل المشاعر، من جديد؟

فلتفكر في توم وجيري، وعُدّ أدراجك إلى أن تصل إلى داوود وجالوت. وإن لم يكن يتوافر للمرء الاستعداد الكامل لمثل هذا، فالتنفس الاصطناعي من الفم إلى الفم يستطيع أن ينقذ الحياة - والنظرة الداخلية التي يتمثل مؤداها في نحو قولك: إني لضئيل جداً، وخبيث، وإنك لعظيم جداً، وبالغ الطيب«إنما هو نداء إلى الآخر- حتى وإن كان أول الأمر ما زال تعبيراً شكلياً خاوياً، مفعماً بالخوف والتقرير المبني على الحساب والتقدير.

وإنما ينبغي أن يتوافر النداء الذي يكون «من القلب إلى القلب» في المخزون الكبير من معاذيرك، مطلقاً، في صورة احتياطي صلب! وما من شكٍّ في أن من الضروري تعهُّد هذا الاحتياطيّ بالرعاية واستكماله في حالة الضرورة.

٢-الوجه الآخر للمعاذير التي تكون «من القلب إلى القلب»

لقد تسلّل إلى حياتنا العائلية وإلى محيط صداقاتنا، الوجه الآخر للمعاذير التي تكون «من القلب إلى القلب»، من دون أن تُلاحَظ ومن دون أن نشعر بها على الأغلب، وأفسحت لنفسها مكاناً من نفوسنا مريحاً.

والمعالجون السيكولوجيون يسمّون هذا، بأوسع معانيه: إسقاطات (Projektionen). غير أننا لا نريد أبداً أن نوغِل في هذه المجالات الصعبة، بل نظلّ في إطار حقائق الحياة اليومية.

فالسيدة س تُحسِن الطبخ كثيراً، ويسرها أن تطبخ، وهي تصنع كل شيء بيدها فهي تُرقِّق صفائح عجين المعكرونة، وتخفق خلطات الجاتو، وتنظّف الخضار... عجباً، إن مذاق هذا لمختلف كل الاختلاف!». وهي تقوم بهذا دائماً، واليوم أيضاً، غير أنها لم تصبح أكثر شباباً. وفي بعض الأحيان، وعلى نحوٍ يزداد تواتراً، تتنهَّد من كثرة العمل، ومن آلام الظهر، ومن بذل الوقت. ولكن: زوجي يريد هذا بهذه الطريقة، بلا ريب، كلا، بل لا يطيب له ما اختلفَ عن هذا: «وحتى الأطفال والمعارف يقولون منذ سنين: «في حالتك يلاحظ دائماً كيف تمَّ تحضير هذا الطعام على هذا النحو المستحبّ! ولكن يا لكِ من مسكينة! كل هذا العمل! لقد أصبحت أسيرة المطبخ!» ويكون الجواب دائماً هذه الابتسامة اللطيفة مع هزِّ الكتف: «وما عساني أصنع يا تُرى! فألبرت يريد الطعام على هذه الطريقة! وعندما أقول: «في وسعنا أن نأتي بأشياء جاهزة»، يقول: «إنهم لا يستطيعون أن يصنعوه بمثل الجودة التي تصنعينه بها على أية حال...». وهو يعلم أنها تريد أن تسمع هذا - فهل عساه يعني هذا بالفعل...؟

وهذا ما تستطيعين أن تنقليه وتطبقيه على كل ما يمكن أن يحدث في إطار الأسرة: الانتقال من المسكن، مع المعارف، وجَرْجَرَة الأثاث، وحزم الصناديق.

ويلاه! هؤلاء العاملون في النقل لا يتعاملون مع الأواني الجيدة بعناية كبيرة!»

أما المسكن فيصار إلى فرشه بالبُسُط ذاتياً، وأما التجهيز بالمرفق الكهربائي فيتمُّ تركيبه على يد ابن الأخ العزيز، ويقول إن المرء يغسل بيديه غسلاً أكثر وقايةً للمغسول، وما من أحد يكوي ياقة القميص مثل صاحب القميص ذاته.

والرجاء أن تلاحظ:

أن الشباب كثيراً ما يواجهون مصاعب مالية، وينجزون كل هذه الأشياء مع أصدقائهم، وبكثير من المرح.

وهذا مالا أقصد إليه.

فالمسألة تتعلق بالمعاذير التي تتجلّى بصورة تدريجية، ولكنها ثابتة، ومؤدّاها أنه لا بدّ للمرء أن ينجز كلَّ شيء بنفسه، لأن هذا هو ما يريده الشريك، ويصرُّ عليه الأطفال، ولأنه ما من أحد يتيقن ذلك وينجزه على وجهه الصحيح مثل صاحبه نفسه! وبالطبع فإن الواحد من هؤلاء يقصد أنّه يوفّر في هذه الحالة - وهذا في الغالب استنتاج خادع، لأن استهلاك الطاقة يأكل الأعصاب، كما توجد أشكال من الاحتكاك وتعكير صفو السلام، والاستياء والغيظ.

ولكن كثيراً ما تكون الإشارة بالقول التالي: زوجي يريد المسألة هكذا - وهي أحبُّ إلى الأطفال كثيراً ...» أوَهذا صُدَيريٌّ واقٍ، وذريعة خاصة غير مسلَّم بها بصراحة، ومؤدّاها أن ربة المنزل يسرُّها أيضاً أن يُنْظَرَ

إليها على أنها تلك التي تأخذ كلّ الجهود على عاتقها، لأنها لا تستطيع أن تقول «لا» بدافع المحبّة؟ أوَ تحمل المرأة أيضاً، من دون أن تشعر، على أجنحة الشعور الذي يدلُّ عليه قولها: «لا بدَّ لي أن أنجز هذا...وإلا فمن باستطاعته أن يقوم به...». على أن معظم النساء لا يدرين أن ثمّة رغبة تتربص بهن من وراء هذا، ومؤدّاها: «أنا أريد أن تكون المسألة على هذا النحو! وينبغي لجميع أفراد الأسرة أن يروا أنني هنا من أجلهم!»، ويتحوّل هذا إلى إكسير الحياة (أو شرابها السحريّ)، كي يبعث في ذاكرة الآخرين، من جرّاء ذلك، الشعور بعدم إمكان الاستغناء عنهن، المرة بعد الأخرى.

كلاّ، إن اتخاذ المرأة هذا العذر الذي يكون «من القلب إلى القلب»، في مواجهة نفسها، لا يعيه إلا النفر الأقل عدداً من الناس - وذلك لأنهن لايبذلن كل هذه التضحيات بدافع الحب وحده بل يفعلن ذلك على الأغلب بسرور بالغ! أما التشكّي من حين إلى آخر فليس إلا طقساً من الطقوس كي تحسّ بصدى الامتنان المرة بعد الأخرى. وربما ضبَطْنَ أنفسهن بأنفسهن، بأنهن يبسطن بساط التضحيات الذي لا نهاية له، بجهودهنّ وألوان تفانيهن في سبيل الزوج والأطفال الذين لن يقدّروا هذا، بعد ذلك، أبداً، بل يدوسون عليه خبطاً بأقدامهم، لا يرجون لشيء وقاراً، وربما فكّرْن عندئذٍ قائلاتٍ في أنفسهنّ: «هل يفترض بهذا أن يكون ذريعتي كي أتعرَّض للاستغلال، وأكشف بذلك للأسرة كلها عن غيريّتي وإيثاري؟ ولأنني طرف لا يُستغنى عنه إلى هذا المدى، أتمتع بالحق في أن يميلوا إليّ؟»

على أن الجسر الذي يمرّ المرء عليه بهذه المعاذير التي تصدر «من القلب إلى القلب» جسم هشٌّ نَفوذ، مُتَرَجْرِج. وفي معظم الأحيان لا يعرف المرء أنها معاذير.

وقد قرأت، قبل بعض الوقت، في مجلة (FAZ) أن أومبرتو إيكو قُدِّم إلى ملكة بريطانيا، أثناء حفل استقبال خريف ٢٠٠٠، في ميلانو، وسألته هذه وهي شاردة: «آه، أنت كاتب؟» فرد الكاتب على السؤال قائلاً، بحضور بديهة: «لا بد لأي امرئٍ كان أن يفعل هذا، بلا ريب!» وكان هذا العذر «القابل للتصديق جاهزاً تحت تصرفه... من دون أن يلوم الملكة التي كان من الواضح أنها لمّا تسمع في غمرة انشغالها بشؤون الحكم، بروايته العالمية الناجحة «اسم الوردة».

٣ - معاذير قولهم «لا أستطيع أن أفسد على فلان سروره»

وتَعْرُض لنا، نحن جميعاً، مواقف في الحياة نضطر فيها، ببساطة، إلى استخدام معاذير يمكن للمرء حتى أن يشير إليها بأنها أكاذيب، ولكن لمّا كانت تستخدم في الحقيقة دائماً كيلا نجرح مشاعر الناس الذين هم في محيطنا، أو نكدّرهم، فإننا نضطر إلى الترحيب بهذه المعاذير ومساندتها.

وعلى النقيض من العذر الرحيم، يعتبر الحافز إلى الكذبة الرحيمة، هذه المرة، حافزاً ينطوي على السرور، بل حافزاً احتفالياً! وعلى هذا فمن الواجب على المرء أن يدرِّب اليافعين على هذا الفنِّ الحَرِج. إنها المواقف الخطيرة التي نضطر فيها إلى إظهار السرور والامتنان على

الرغم من أننا نشعر في الحقيقة بالنقيض على وجه الدقة: ومِنْ ذلك تلقّي الهدايا التي تُسَلَّم إلينا على الدوام تقريباً، برقة وتلطُّف، وسرور بما هو متوقّع.

والرجاء أن تتذكّر: فنحن نَصدِر، جميعاً، ردود أفعال صحيحة، من دون أن نتروّى أو نفكّر أو نقصد إلى ذلك: عندما يهدي إلينا طفل - سواء أكان طفلنا أم طفل واحد من معارفنا - شيئاً ما. فقد أهدى الصغير، قبل مائة عام، جدّه، أو جدّته قطعة من الورق عليها كتابة رديئة، مهتزّة، غير منتظمة، ضغطها في يديه، في عيد الميلاد أو في عيد ميلاده، أو هكذا ببساطة، وتعجَّب الجدّ والجدّة وكل من حولهما، قائلين: «آه! ما أجمل هذا! أتُراك رسمت هذا لي؟ وقال الصغير فريتس: قبل مائة عام: «أجل، هذا منزلنا»، كلاّ، ياله من منزل جميل! ويا لها من ألوان كثيرة! هلاّ أرَيْتَني ذات مرة أين تقع حجرتك». وعندما سلّم الصغير فريتس قصاصته من الورق، وهو يلتزم الصمت، وقد شعر بشيء من الحرج، سأله الجدُّ والجدّة بحذر: يجب عليك أن تشرح هذا بدقة. هذه الصورة الجميلة! لن أرى في مثل حسنها بعدُ أبداً!»

وقال الصغير فريتس:» هذا هو الفيل، بلا ريب، وقال الذين تلقّوا الهدية: «أجل، أجل، بالطبع، الآن أدركت ذلك بدقة كاملة! الفيل ذو الخرطوم!»

ومثلما فعل الصغير فريتس قبل مائة عام، يعرض اليوم أيضاً الصغير أليكس ورقته ذات الأوراق الخضر والأزهار، والدوائر، ويتعجب الجدّ والجدّة على نحو مماثل بالضبط ويعجبون بالهدية. وما كان أحد

من الكبار لينتهي إلى الجواب الذي يقول: ماذا يفترض أن تعني هذه الخربشة! هذا، بلا ريب هذرٌ وعبث، وليس بصورة!. ومثل هذا يقوله، على أقصى تقدير، الأخ الأكبر، الغاضب المنتفِش، ولا يصدقه القوم على أية حال، لأن هذا الأمر يعد بَلَهاً على أية حال.

وعلى هذا فنحن جميعاً نَقَرُّ عيناً بالأعطية، حذف، لأنها تُقدَّم إلينا من باب الألفة والثقة، هدية ويُحافظ على الورقة المشوّهة بالخربشة الملوَّنة، و يجري تداولها بعد كثير من السنين مصحوبة بالابتسام والتأثُّر: من فريتس، في الثالثة من عمره أو، اليوم: «من أليكس، في الثالثة من عمره».

وعلى هذا فسواء أهدى إلينا الصغير أليكس ثمرتين من المندلينا قد أضَرَّ بهما الضغط والعبث أم ناولتنا الصغيرة نيكول طاقة من زهرات الإوز نصف الذابلة، فنحن نظهر السرور ونحسّ بها على الدوام تقريباً مشوبة بشيء من التأثّر.

فماذا يحدث لنا عندئذٍ؟

لقد تأثّر قلبنا.

لقد ظلّت عادة الإهداء باقية، وهي تظل ترافقنا طوال حياتنا، وثمة أعياد جمّة تعدُّ حافزاً لذلك: عيد الميلاد، وعيد التسمية، وتناول العشاء الرباني، وتثبيت العماد، والزواج، والحصول على الثانوية، والتخرُّج، وفيما بين ذلك أعياد الميلاد، وعيد الفصح، وعيد الأم، وأعياد الذكريات العائلية، وكلما كبر حجم العائلة ازداد محيط الأصدقاء ألفةً، وازداد تواتر تلقّي الهدايا.

ولكن - أقول ويدي على قلبي: في بعض الأحيان يتولى المرء الفزع، فهذه المزهرية الكريستالية ذات الطراز القديم ما عادت تتلاءم مع تجهيز بيتنا على الإطلاق! والآن أحصل للمرة الرابعة على سمفونية بيتهوفن التاسعة، مع الأغنية إلى السرور، هديةً! أما الأسطوانة فلا أستطيع أن أسمعها، إذ ليس عندي جهاز تُعزَف عليه!

وما أكثر ما قلت إنني لا أحب الحلويات - ولكن ها أنذا أتلقى طرداً يحتوي على الطسرطوفةّ أما الصنف رقم (٤٧١١) فلا أستعمله أيضاً - وفضلاً عن ذلك فلا ريب في أن هذا هدية للسفر والتجوال تلقتها عمتي ذاتها ذات مرة.

ثم يغمغم المرء قائلاً: «ألا إن هذا لجميل، هذه المزهرية تتلاءم تلاؤماً حسناً مع الوردات ذوات الساق الطويلة!».

«آه، بيتهوفن... الأغنية إلى السرور، هذا شيء يستطيع المرء أن يسمعه المرة بعد الأخرى!»

«أسطوانة - هذا رائع! سوف أسمعها عما قريب مع الأطفال، فلديهم جهاز لتشغيلها!».

«طرطوفة، شيء جميل تماماً، مرة أخرى!»

«هذا شيء عملي! مناسب للرحلات، وهكذا...»

أهي كذبة، بعد الأخرى، أم ماذا؟

كلاّ، بل نقول: إنه عذر.

«ما من شكٍّ في أنني لا أستطيع أن أُفسد عليه سروره».

وعليَّ التسليم: فالموقف شائك ومعقّد.

وبعض الأعطيات يتلقاها المرء لأن من المألوف على أية حال أن يأتي المرء معه بشيء ما «لا بُدّ للمرء أن يهدي شيئاً ما». وعندئذٍ لا تقع عبارات الشكر التقليدية هذا الموقع الثقيل، ولا سيما حين يكون أول ضيف ما زال حاضراً ومعه العلب الملوَّنة، أو باقة الأزهار الخامسة.

والرجاء أن تلاحظ قاعدة هامَّة:

عندما يأتي عدد من الزوّار بهدايا على سبيل التحيّة فعليك أن تشكرهم بقدر من السرور مماثل قدر الإمكان وأن تكون حرارة اللقاء متماثلة،، وتدوم وقتاً مماثلاً، سواء تلقيت لدى الاستقبال شمعة عسلية صفراء أو فوجئت بمصباح مكتب جميل لم تكن تحسب له حساباً أبداً. وفي وسعك أن تعبّر فيما بعد، مرة أخرى، وفي خلوة مع صاحب الهدية، عن سرورك بهذه الهدية. وليس كل امرئٍ يتمتّع بالخيال، وليس كل امرئٍ يتحلّى بالذوق، وليس كل امرئ يملك المال!

ولكن ينبغي للمرء أن يظهر سلوكاً مهذَباً حسناً بحكم كونه المُهدى إليه - وإذا استقام الأمر - فليظهر السرور والامتنان أيضاً، وليس هذا بالصعب كثيراً في حالة هدايا التحية والتهنئة مع وجود عدد من الأفراد. لقد تغيّر الزمان كثيراً، ولكن حين يتقلّب الشيوخ في عالم الذكريات وقد غلبهم الحنين والافتتان، يقول الواحد منهم:» يا لَسروري في تلك الأيام! هذا هو قلم الحبر الأول! وكنت عندئذٍ في العاشرة تماماً! ولكن اليوم...». أو:

«كنت أتلقى دائماً مجلداً من مجلدات كارل مايْ! في كلِّ عيد ميلاد، وفي كل ذكرى سنوية لميلادي! ولقد كنت أنتظر ذلك أيَّما انتظار! وكان هذا هو الهدية الأجمل والأكبر بالنسبة لي، مجلد من مجلدات كارل

مايْ، ولكن اليوم...» لا ينبغي لكبار السنّ أن يزيحوا الذكرى، في هذا الصدد، ذكرى كسب الوالدين ما هو أقل كثيرا! لقد طالما أرهق قلم الحبر ومجلد كارل مايْ الميزانية إرهاقاً شديداً! ولأنه لم يكن هناك فيض زائد من الترف، أبداً، لم تكن توجد أيضاً رغائب أو أشواق في هذا الصدد.

وبالمناسبة: فإن الأطفال ينتقون الهدايا المفضلة على نحو مختلف كل الاختلاف، وهم أيضاً في العصر القديم الطيّب». وذلك أنّ جرابات الركبة المشغولة بالمخرز، بيد العمة ذاتها، والصُّديري من الجدَّة، لم يكونا يصيبان النجاح مثلما كان يحققه قلم الحبر! ولم تكن البيجاما والقفافيز اليدوية المصنوعة من الصوف تصلان إلى مستوى الحماسة لكارل مايْ.

كلاّ، فإن المقارنات مع الزمن السالف لا تسير إلا سيراً أعرج. واليوم تصدر عن الأطفال ردود أفعال مماثلة لهذه على وجه الدقة في كثير من الأحيان. كلاّ، كلاّ، لقد كانت حُلَّة التدريب على اللياقة البدنية ضرورية على أية حال، وكان المُهدى إليه قد كبُر بالنسبة إليها وشبَّ عن الطوق، ولكن أخيراً هناك هاتف خليوي خاص! لقد كان هذا بمثابة الضربة الصحفية المطلقة!

والكيس المحمول على الظهر، لقد كان هذا مستحقاً، قد آن أوانه! وإلا فأين كان ينبغي للمرء أن يخزن أوراق الدراسة، ولكن جهاز الستيريو ميغابوكس، الجديد، كان شيئاً فائقاً!

وربما كان الناس قبل هذا يشعرون بامتنان أكثر، ولكن أليكس ونيكول أيضاً يختاران الأشياء المفضلة عندهما من دون هواجس، ومن دون مراعاة لمشاعر مقدِّمي الهدايا.

لقد تأصَّلت في مجتمعنا، مجتمع الفيض والوَفرة، على نحو مطَّرد الزيادة، عادة منح الأطفال المال ببساطة. «ماذا ينبغي على المرء أن يهديهم وهم الذين يملكون على أية حال كل شيء، ولهم ذوقهم الخاص تماماً!». وفي كثير من الأحيان لا يعرف الأقرباء، أو يعرفون في وقت متأخر جداً، لأي شيءٍ تستعمل النقود التي في جيوبهم، ولمّا كانوا لم ينتقوا شيئاً بأنفسهم، ولم يُسهموا، بذلك، في إشباع رغبة الأطفال، فإن المسألة تغدو بالنسبة إليهم غير ذات أهمية أيضاً.

ولكن ماذا نفعل نحن الكبار؟

وهنا أيضاً حدث تبدُّل - كان غير ملحوظٍ في البداية، ثم أصبح أكثر بَدَهيَّةً على نحو مطَّرد. وكان، بالمناسبة، تبدُّلاً كبيراً جداً، وعلى هذا النحو كان له جانبان.

فقبل خمسين عاماً، أي بعد الحرب، لم يكن يوجد شيء تقريباً، لدى كل الناس تقريباً. ولم يكن الناس يفتقرون إلى المواد الغذائية والثياب فحسب، بل لم يكونوا يملكون متاعاً، ولا تجهيزات منزلية. لاشيء! لا منديل ولا منشفة يد، ولا فرشاة أحذية، ولا شريط تمديد كهربائي، أو إبريقاً للقهوة. ولكن الناس انتقلوا إلى مساكن، وتزوج الأزواج من الشباب، وهكذا كان من المعقول حقاً أن تُرسَلَ، بمناسبة زفاف أخت صديقي، لائحة إلى كل ذوي القربى والمعارف، بالرغائب، والحاجات التي كانا يحتاجانها:

خيوط للخياطة والرَّفو، وسكّينان للخبز، ستة فناجين للقهوة مع أطباق تحتها، ماركة كذا. ومناديل للأواني المنزلية، ووسادتان. وكان كل واحد من هؤلاء يختار ما يستطيع إهداءه.

وحظي الحلُ الاضطراري بكثير من المقلِّدين وكان هذا أسطورياً أيضاً. وماذا كان المرء يريد أن يصنع بعشرة من مناديل الأواني المنزلية إذا كان لا يملك شوكات؟ وفيم يستحوذ على المزهريات الثلاثة ما دامت كؤوس الماء أهمّ منها؟ وكانت الاختيارات في المحالّ غير كبيرة، غير أن أهل العرس سُرُّوا أيَّما سرور بالهدايا وكانوا ممتنِّين. وكانوا في هذا صادقين، إذ أصبح في وسعهم استعمال كل شيء.

واستمرّ هذا التقليد على مدى نصف قرنٍ. وفي أعياد الميلاد المكتملة الناجحة، وأعياد اليوبيل يتم تدوير لائحة الرغائب من قبل الأصدقاء بتحفّظ وهدوء، من دون لَفْتٍ للأنظار، على أن المطاليب ازدادت دقةً وإرهافاً - فكان يُؤتي من محلات «روزينال - سيرفيس»، و«حلم اليابان»، بأطباق الشاي، ومن محلات «الأضواء الخاصة، بسلسلة التعتيم التي تضعف الضوء شيئاً فشيئاً، واسمها منتصف الليل، ويؤشِّر المرء على شيء محدد أو يُطْلِع على ذلك أفضل صديقاته.

ألا إن هذا لرائع! فما عاد هنالك هَرْشٌ للرؤوس أو إفراط في التفكير: «ماذا أهدي فحسب!». وكيلا يقدّر المرء المسألة دون قدرها: كان المُهدى إليه يعرف على الفور مقدار ما استثمر أحدهم من حيث السعر، وأن الواحد من المشاركين يأبى ان يظهر بمظهر البخيل الشحيح! ويذهب الواحد منهم إلى الاحتفال باليقين الذي تشيع فيه البهجة: هذا شيء سوف يُسرُّ به فلان أو فلانة!

وهذا صحيح أيضاً

ولكن الناس لا يرون هذا فحسب، على الأغلب.

ذلك لأن ثمة عادة تسللت إلينا متشبّثةً بنار خفيَّة، هادئة: وذلك أن الواحد منا يناول الهدية المحزومة حزماً جميلاً، وتوضع هذه على منصّة الهدايا، وتهمس الصديقة الطيبة للمُهدى إليه قائلةً: «هل رقعة اسمك موجودة مع الهدية؟».

إنها موجودة بالطبع دائماً.

وفيما بعد - وبعد ذلك بكثير، في غالب الأحيان - يعرف المرء عن طريق الهاتف، أو عن طريق البطاقة البريدية، كيف سُرَّ المُهْدى إليه، وكيف ردَّ بالشكر من قلبه

هل ترى أنني ماكر، شرّير؟

أنا أعترف لك: أنا أفعل هذا أيضاً.

وما هو إلا حَلّ الرزمة، وإبداء الإعجاب، والورق الجميل، وجمال الزينة التي ازدانت بها، ويكون الأضياف التالون قد حضروا. وهذا يجعل المرء عصبياً جداً، وإذا سكينة الإعجاب قد أدبرت ببساطة وفي غمرة الانفعال لا يعرف المرء بعد ذلك، في كثير من الأحيان مِمّنْ وردت علبة الكرتون التي تحتوي على الشمبانيا... أو الكتب الثلاثة... أو... هذا فيما بيننا: فإن تقليد تعطيل الهدية يرفع عن كاهلنا - ولا سيما حين تكون الهدية من دون لائحة مسبقة للطلبات - عبء الشكر على الهدايا التي لا تروق لنا ببساطة، لأن لنا ذوقاً مختلفاً، ولأننا خرجنا من طَوْرِ سنّ أليكس ونيكول! ونحن مضطرون إلى أن نقدِّر كل الهدايا حقَّ قدرها.

وفي صدد تقليد تعطيل الهدية نُبْحر في المياه متفادين كل الصخور الناتئة، على الأغلب، من دون أكاذيب، أو معاذير، أو صيحات تعبِّر عن سرور زائف.

على أن الهدايا الرسمية تعدّ أكثر إحراجاً إلى حدٍّ بعيد، وهي الهدايا التي تقدَّم إلينا وسط حلقة كبيرة من الزملاء، إذ تكون على الأغلب قيِّمة، غالية، وينبغي أن يأتي الشكر منسجماً مع هذا.

وأنت تعرف، من التلفاز تكريم السياسيين، أو الحكام، أو الشخصيات الأخرى ذات الاستحقاق، هنالك يقدّم إلى الزائر، مثلاً، أيقونة قيّمة - خصوصية من خصوصيات هذا البلد - والمُهدى إليه لا يحبّ الأيقونات. فالقدِّيسون الذين هم في طَورٍ من أطوار الوجد - والكاهن الذي يمنح البركة، والشهيد المعذَّب - هذه الأجواء السماوية لا يستطيع المرء أن يفعل بها شيئاً ما، ولكن المضيف يتوقّع الشكر!

وعلى هذا فنحن نفترض، إنقاذاً لشرف الزائر الأجنبي، أن المعالجين الموضوعيين والمترجمين، هيّأوه لهذه المراسم.

أو يقوم زعيم قبيلة من قبائل السكان الأصليين في شرقيّ أفريقيا بتكريم الضيف الغربي الذي يرتدي حلة زرقاء داكنة عليها صفان عموديّان من الأزرار بتقديم تاجه المصنوع من ريش الطاووس، وزينة العنق المتخذة من القواقع، على أن التلفاز لا يرحم عندما يستقر التاج مائلاً على الرأس منحرفاً، وتكون حلية العنق مفرطة في الضيق، ويغدو المكرَم عصبياً على نحو ظاهر للعيان.

وهذه المواقف يتعرّض لها معظمنا مرة، أو مرّتين، أو ثلاث مرات في العمر!

متى؟ لديك، مثلاً، ذكرى يوبيل العشرين لمؤسستك، أو تحظى بالتكريم بمناسبة بلوغك سنّ الستين، أو السبعين، من قبل حزبك، أو اتحادك، أو تقدم إليك الأسرة هدية جماعية كبيرة بمناسبة اليوبيل الذهبي لزواجك.

ولكن الناس يريدون دائماً أن يفاجئوك في مثل هذه الحال، ويتم التشاور، ويحدث التنازع والجدل، والأخذ والردّ، والتفكير: هنالك سوف تتولاّك الدهشة - وسوف يسرهم هذا - فهذا ما يحبه حباً جمّاً - وهذا هو المناسب على وجه الدقة من أجل هذه المناسبة!

ويجمع القوم المال، أو يغترفون غرفة جريئة من خزانة الأسرة - ويتوافر مبلغ ضخم تحت التصرف.

وتكون كل العيون موجهة إليك في توقُّع وترقُّب، عندما تتم مناولتك الهدية الرائعة في المصنع، أو في المؤسسة، أو في محيط العائلة.

فهل تتوافر لديك فكرة عما يُقبِل عليك هنا؟ كلاّ؟ إذاً فأنت تحسن صنعاً إذا ما هيَأت نفسك بما يتلاءم مع ذلك. وقد مثّلت تمثيلية في حلقات دراسية جمّة العدد حول لغة الجسد، والإيماءات واللفتات والبلاغة مع مجموعة المشاركين مؤخراً.

الحاضرون يقعدون جميعاً في نصف دائرة، وثمة منصة للمتحدث أو مقعد ذو مسند موجَّه نحو الجمهور يزوَّدان بتقديم كبير لا يرى الصُّور التي فيه إلا المتحدّث في الاحتفال، على حين لا يراها المتفرّجون.

ويعرض التقويم لوحات زيتية جميلة لمشاهير الفنانين من كل القرون، أي من جيوتو إلى بيكاسو - أناساً، أو أزهاراً، أو أشياء، أو مناظر طبيعية، صوراً للسيدة العذراء، أو فصولاً في تصوير الأجساد العارية (وكانت التقاويم على الدوام هدايا دعائية من المؤسسات الكبرى). وكنت أقلّب الصفحات، وأنا مغمَض العينين، مقابل كل الصور غير المرئية، على أية صورة من صُوَر الأشهر، وأقرِّر ماهيَّتها على حمَّالة الرسم هذه المرتجلة المؤقتة.

وكان كل من المشاركين الأربعة عشر يأتيه الدَّور، واقترحت أن يكون ذلك تبعاً للسن: الصورة الجميلة الغالية هدية للعائلة، هدية الزملاء في عيد ميلاد المشارك، أو في ذكرى اليوبيل أو عند اختتام الخدمة في المهنة، وكانوا قد جمعوا المال جميعاً من أجل هذا، وكلّفوا واحدة من زملائهم بتأمين الصورة، وينتظر الجميع أن يَقَرَّ المُهدى إليه عيناً بالهدية.

فكيف كان ردُّ فعله - أو ردُّ فعلها؟

وماذا كان يقول، وكيف كان يقوله؟

وهل كانا يَقرَّان عيناً، أم كنا نلاحظ، من خلال أيِّ شيءٍ، خيبة الأمل، بل الاستغراب والدهشة.

وكيف يخفي هذا؟

وإلى أي مدى كان الشعور بالمفاجأة، عنده صادقاً أصيلاً؟

أما الصورة فلم تكن تُعْرَض، ولا كان يُذْكر اسم المصوِّر أيضاً إذا ما عرفه المُهدى إليه.

وأنتم خليقون أن تتولاكم الدهشة حيال مدى الإصابة والدِّقة اللتين ميَّز بهما المتفرِّجون ردود أفعال متأملي الصورة!

أما إنجه فقد استنشقت الهواء في ظمأ إليه ولهفة، وأنشأت تقول متلعثمةً: «آه... إذاً فهي من هذا القبيل... كلاّ، إني لأشكركم الشكر الجزيل.. كلاّ، إذاً...».

وأما أستريد فانحنت انحناءة عميقة فوق الصورة، وظلَّ رأسها منكَّساً هنيهة من الزمان، وغمغمت قائلةً: «يجب عليَّ أن أتأمَّل هذه بدقّة...آه... أجل... أي شيء جميل هذا الذي تفتَّق عنه ذهنكم من أجلي - إنه لشيء...» أما وجهها فكان المرء لا يكاد يراه.

وأما فالتر فوضع يده اليمنى تلقاء فمه، وأسندها إلى أنفه، وهزَّ برأسه، وجعل يخطو، متردداً، خطوةً إلى الوراء، وتشبَّث بكلتا يديه، جانبيّاً بمجلد الصور: «بلى... أيها الزملاء الأعزاء، هذه بالفعل فكرة رائعة كل الروعة، منكم... وأعتقد أن هذه الصورة تتلاءم كل التلاؤم مع حجرة هواياتي، في القبو...».

وكان في وسع المرء أن يرى كل شيء على وجوه الجميع، وأن يؤوِّل ردود الأفعال التي تعبِّر عنها اللفتات، ولهجة الجمل المتعثِّرة أو السلسة. وفي بعض الأحيان كان الذوق يتعرض لشيء من المسِّ به: ثم جاءت الكلمات أكثر خفَّةً، وسلاسةً، وسرعةً، أو كانت فترات التوقف، والابتعاد، والإعراض، والأيدي التي تخفق كالرايات تكشف عن حيرة: وما أقوله الآن - لا يمثل ذوقي مطلقاً! فماذا ينبغي لي أن أصنع بهذا؟».

وكان هناك بالطبع أيضاً مشاركون في الدورة أعدّوا عدَّتهم لها، وكانوا يريدون أن يعبِّروا عن سرور مطلق وامتنان مطلق، وصاح شاب مشحون بالطاقة مُحدثاً بهجة خصوصية، وقد دنا من حمالة الصور في حَميَّة وعنفوان: أيها الزملاء الأعزاء، ما كان في وسعكم أن تدخلوا على قلبي سروراً أعظم من هذا! ولسوف تتبوأ هذه الصورة مكان الشرف في مسكني...» ولم يكن ألقى بعدُ نظرةً على الصورة!

وثمة صورة في ذهني لا تُنسى لشابة بدأت بالقول بابتسامة مشرقة: «أجل، يا أصدقائي الأعزاء...» ثم أبصرت الصورة، فانداح عن وجهها اندهاش يخرج المرء عن طوره، ثم أخذت تضحك ضحكاً بلغ من عنفوانه، وسَرَيان عدواه أنَّ الدموع انثالت من عينيها من فرط السرور، وكانت ما تفتأ تقول، من خلال ضحكاتها، المرة بعد الأخرى: «رباه، ماذا يفترض أن يعني هذا؟ وهذا من عساه يكون؟» وكنا نشاطرها الضحك، وأردنا آخر الأمر أن نرى موضوع سرورها.

وكانت الصورة الزيتية لفنسنت فان جوخ: «رولان، ساعي البريد».

وما من شك في أن هذا كان بالنسبة لخبراء الفن شيئاً يستحق الملايين، ولكن ساعي البريد الطيب كان يبدو للمسرورة، بيا، من حيث كونه هدية، بلحية وجنتيه ذات الخصلات الذهبية وقبعته الزرقاء على رأسه، باعثاً للبِشْر، وباعثاً للضحك على نحو لا مثيل له حتى إنها ما عاد في وسعها أن تتمالك نفسها. وفي الحقيقة كانت نوبة الضحك عندها تمثل أفضل معذرة مبنية على وجهة النظر الخاصة التي يستطيع المرء أن يتصوَّرها. وما زالت ورقة التقويم

عندي حتى اليوم - وما كان يحقُّ لخبير في الفن أن يسألني عن حكمي، ولو أنه فعل لكنت خليقاً أن أشرع في الضحك من دون عائق على نحو مماثل لذلك الضحك بالضبط.

وبذلك نصل إلى النقطة الجوهرية:

كيف نتصرّف في مثل هذا الموقف؟

لقد أهدى إليك القوم هدية جميلة، كما كان ذلك متوقعاً منهم، هدية قيمة، تدوم مدى الحياة إن صحَّ التعبير: مجلداً من الفن من الحجم الكبير، يقع في ١٩٣ صفحة! بيكاسّو أو ماتيس، أو فرا أنجيليكو، نسخة طبق الأصل تماماً لكتاب أدعية من العصر الوسيط - ومجموعة أعمال أدورنو مع تدقيق جديد في الكتابة - ورسائل تيودور فونتانه في طبعة فاخرة - وعروسة تكاد تكون حقيقية من عرائس كيثه - كروزه - وطبقاً زخرفياً للزينة من طراز مدينة مايسّن.

وإذا سُررت بذلك وتأثَّرت به تأثُّراً عميقاً فذلك رائع! وكلمات الشكر والامتنان لا تحتاج إلى تمهيد.

ولكن إذا لم يحدث ذلك؟

فمن المستحسن:

١- أن تفكر منذ انطلاقك إلى الهدية في أن تضحك قليلاً وشفتاك مُطبقتان. وبعد نظرة عابرة تكون قد خامرك إحساس داخليّ بما ينتظرك. «قبل أن أتأمل هديتكم، على الفور، بهدوء، أودُّ أن أعبر عن إحساسي العميق بالشكر على ما بذلتم من الجهد الكبير بمناسبة يوم

ميلادي التذكاري» فلتقرؤوا ورائي، مرة أخرى، بسرعة: سياسيون بعد انتخابات خاسرة، إنهم يشكرون على ما بُذِل من الجهد والتحضير ويستطيعون أن يعربوا عن هذا بصدق، ويفسحوا المجال بذلك لانفعالهم، بهدوء، وليس هذا بالمعذرة! فهم يتمالكون أنفسهم في هذا الصدد، على أن الانفعال الداخلي يسمح لهم عندئذٍ أيضاً بأن يحضِّروا الجمل المتعلّقة بالهدية وهم يتعثّرون: «إنني أفتقر إلى الكلمات بالفعل».

يفتقرون إليها فعلاً. وماذا يُفتَرَض أن يصنعوا بهذه الهدية؟! فتركِّز جهدك على المفاجأة، والاحتفالية، والمشاركة مع الزملاء.

وسواء أكان ذلك في إطار الأسرة أم في إطار المهنة - فتلك هي الطريقة الأمثل والأكثر إقناعاً لتجنّب إصدارك الحكم على الهدية في الوقت الحاضر، ولتفعيل ذلك على غرار ما حدث في رَسْم الصغير أليكس وباقة زهرات الإوز التي أتلفها الضغط، باقة نيكول.

والرجاء أن تلاحظ:

أنَّ شعورك بالمفاجأة وتعجُّبَك، والاندهاش الذي يعبَّر عنه كلامك أفضل من إصدار الحكم، إذا كان هذا الحكم ليس بالإيجابيّ حقاً وصدقاً.

٢ - عليك بصياغة عباراتك بحذر.

«أعتقد أنني سأبذل الكثير من الوقت هَدْراً كي أقرأ أو أتسلَّى بالمطالعة...».

«سوف أظل أتأمل المزهرية (أو الصورة، أو التمثال) المرة بعد الأخرى، وألتمس لهذه الأشياء المكان المناسب...»

«الآن سوف يتعجب الأطفال ويندهشون أيَّما اندهاش... أما والدي...». لم أرَ قطُّ شيئاً كهذه، نادراً، ونفيساً. لقد ظللتم تبحثون زمناً طويلاً، بلا ريب... ولست أدري كيف انتهيتم إلى هذه الفكرة...» وهل تُراك تلاحظ أنه في حالة المفاجأة والاندهاش، فإن المعذرة التي هي من طراز قولك: «آه، يا لَهذا من جمال رائع! كلاّ، ما أكثر ما يسرُّني هذا!»، تؤجَّل إلى وقت لاحق؟

والرجاء أن تلاحظ:

أنّ الأجوبة التي تتميّز بحضور البديهة، والإرجاء البارع لإصدار الحكم في حالة حدوث هجوم أو تبادل الضربات مع الشركاء، أمور تتمتع بالأولوية على حضور الذهن، ورد الفعل الفوري.

وفي حالة معاذيرنا الخاصة تجاه أنفسنا: لقد كان قصد هؤلاء حسناً للغاية بلا ريب... وأنا لا أريد أن أسبّب لك الألم»، بذلك يُخاطب القلب والنفس، وهنا يكون العثور على الجواب الصحيح أصعب علينا كثيراً.

وبالطبع فنحن نعرف ونستطيع جميعاً أن نطلق صيحات من قبيل: «ما أروع هذا! إنه فائق الحسن! بل هو من الدرجة الأولى! ألا إن هذا لخرافيّ!». ولكن لا بُدَّ لك أن تأتي بهذا على نحو مستحسن جداً، إذا كان يُفترَض ألا يستخلص المرء رأيك الحقيقي.

وعلى هذا فلتحاول، ببساطة، أن ترسّخ الموقف في نفسك، قبل مثل هذا التكريم، أو مثل هذا الاحتفال، أو مثل هذا التسليم للهدية، وهذا الموقف يتمثل في نحو قولك: أنت تريد أن تُدخل على قلبي السرور، وسوف أُسَرُّ بذلك، بلا ريب!

ومما يقِلُّ عن ذلك حُسناً، مثل ردُّ الفعل هذا:

«كلاّ، أي مالٍ أنفقتموه كأنه مال الكفّار! ألا إن مثل هذا لباهظ الثمن إلى حدٍّ يبعث في النفس الشعور بالبؤس، ويلاه، إنه لباهظ إلى حدٍّ مفرط بالقياس إليّ! لا تلتفتوا إليّ أبداً، أنا الإنسان البسيط! أنا لا أستطيع أن أتقبّله بضمير مستريح!». ولعلّ من قبيل السيئ تماماً قولك:

«آه، يا عزيزي! هنا سوف أضطر إلى أن أرى أين أضع هذا، فليس في مسكني من الأماكن إلا القليل جداً!».

أو:

«كلا!، كلا!... هذا شيءٌ لا بدّ أن أعتاد عليه أوّلاً... لقد كنت أتوقع شيئاً مختلفاً كل الاختلاف - وعلى هذا فالأفضل أن ننسى هذا ولا نعود إلى الحديث عنه! أمّا ما يذكّرني بكم فقد كانت له على الدوام قيمة بالقياس إليّ، حقاً!».

وهناك بالطبع أيضاً المتعصبون للحقيقة، الذين يقولون ببساطة: «كلاً، يا جماعة، لقد أحسنتم القصد، ولكن ما من شيء هو لي أنا. أتُراكم لا تستطيعون استبداله؟ فأنا لا أستطيع أن أصنع شيئاً به». وربما كان هذا المتغيّر ممكناً، في حالة كون مقدِّم الهدية ينتمي إلى الفئة العمرية ذاتها التي ينتمي إليها المهدى إليه (أي أنهما حديثا السنّ تماماً).

ويوجد بين الأجيال عملية توازن صعبة، ولا يوصى بذلك أبداً في الحياة المهنية، وإنما يكون ذلك ممكناً على أقصى تقدير في المحيط الضيّق، بين الأصدقاء الحميمين. وذلك أن بعض الناس يقولون عندئذٍ: «إنه رجل شريف على أية حال»، أما الآخرون فيقولون: «إنه رجل غير عارف للجميل!».

أما عذري الأول، الذي يدخل في فئة: «لا أستطيع أن أُفسدَ عليه سروره»، فهو ما أستطيع أن أتذكَّره بوضوح بالغ، وربما أحسست في تلك الأيام إحساساً داخلياً أن هذا كان كذبتي الأولى بدافع المحبة.

ولم يكن التنوير في طفولتي موضوعاً مهيمناً، ولم يكن هناك بعدُ أفلام فاضحة، وكان الأزواج من العشاق في الصور في ثيابهم على الأغلب، أي أن الفضول كان قليل التعرُّض للإثارة.

وفضلاً عن ذلك، كنت ألتهم الكتب بكميّات هائلة، وكنت سعيدة منسجمة كل الانسجام في عالم الأساطير الدينية والحكايات والأساطير الخرافية، وفي عالم السحر.

وفي وقتٍ ما - ولا بُدَّ أنني كنت في السابعة، أو الثامنة، كانت أمي، ذات المرح والانطلاق والرقَّة، تشعر بأنها ملتزمة بتنويري. ومن أجل هذه اللحظة التي لا شكّ في أنها كانت منتظرةً بخوفٍ وتوجُّس، أخذتني ذات مساء بين ذراعيها، وحدثتني أنني نَمَوْتُ في بطنها، ثم أبصرت نور الدنيا...

وكانت إنارة المساء التي يشوبها الغسق تحول بينها وبين أن ترى وجهي المشوَّش الذي كان ينمُّ عن عدم تمالكي لنفسي. ألست أنا التي جيء بي عبر المحيط، وكنت بالطبع الطفلة الأجمل إطلاقاً، التي تعيش بين أزهار ورود البحر، وسط الجنيات والساحرات، ولم أُحْرَم النشوء في قصر ملك إلا بطريق السهو والخطأ؟- أأكون أنا، نشأت في بطن بدين فظيع، بكل ما فيه من الأحشاء والأمعاء؟ وتولاّني الخرسُ من الفزع. هنالك أنهت أمي التي أحبها حباً جماً، طقس التنوير بقولها:

«وهل تعلمين ماذا قالت ابنة خالتك هيرتا لأمها حين سمعت هذا؟ لقد قالت: أمّاه! الآن أصبحت أحبك حباً أكثر بعداً من ذي قبل كثيراً!» وكانت أمي تنظر إليَّ في هذه الأثناء بعينيها الصافيتين، البنيَّتين، المفعمتين بالتوقُّع، وبوجه طلق الأسارير تماماً، ونطقت بالجملة الأولى المتعثّرة، الجملة الأولى في حياتي التي تتمثّل في أكذوبة مفادها: «ليس في وسعي أن أقوم نحوها بهذا» وخبَّأتُ وجهي في كتفها.

وبعد الكثير، والكثير من السنين، وكانت قد بلغت من الكِبَرِ عتيَّاً، ولكنها ما زالت تتمتع بالعينين الصافيتين، البنيّتين المفعمتين بالتوقُّع، اعترفت لها بهذا العذر الأول في حياتي: لم يكن هناك طمس للتصرفات الصغيرة، ولا مخادعة بسبب نزوات طفولية، ولم أنْسَ هذا الاعتذار الاضطراري أبداً.

«ولكن ما كان من الممكن أن أسبّبَ لكِ ألماً أبداً!»

وبصورة عَرَضيَّة: لقد كان هذا أمراً مستحسناً منك. ففي تلك الأيام كان خليقاً أن يحزنني بلا ريب أن تجدي بطني فظيعاً. أما اليوم ففي وسعنا أن نضحك من ذلك، كلانا!». وذلك أنني لم أكن أستطيع، على الدوام، في حياتي، أن أُميّز الحدَّ الفاصل الدقيق بين الأكذوبة والمعذرة، وأتمكّن منه بهذا القدر من الإتقان، بدافع المحبّة. كلاّ، مع الأسف.

٤ - معاذير البريد الهادئ

وأنتم تذكرون جميعاً طوراً من أطوار أيام الطفولة والمدرسة، إذ كان مما يهوى الأولاد في أعياد الميلاد الشخصية، وما شاكلها من المناسبات، أن يلعبوا لعبة البريد الهادئ:

إذ يقعد الأولاد في دائرة، أو بعضهم إلى جانب بعض، وكلهم يصيخ أذنيه بانتباه، ويبتدع أحدهم كلمة تكون طويلة وصعبة النطق[١]، وكان من المحبوب جداً استعمال كلمة «قبطان شركة بواخر الملاحة في نهر الدانوب»، المدمجة في كلمة واحدة، أو كلمة «خطيب الاحتفال بعيد ميلاد الشركة» المدمجة أيضاً في كلمة واحدة. أما اليوم فربما أخذ الأولاد شيئاً ملائماً للعصر، مثل: (قوة غزو الفضاء بين المجرّات)، ولكن لا يجوز أن تكون كلمة يخترعها الولد من بنات أفكاره، أي كلمة عبثية تنطوي على الغباء، بل لا بُدَّ أن تمثل مفهوماً، على وجه الإطلاق.

وكان الولد ينطق بهذه الكلمة بصوت سريع خافت كالصفير الخفيض إلى أقصى حدٍّ ممكن، وبسرعة، في أذن جاره، فيصفِر بها، هذا - مثلما سمعها، في أذن النفَر المجاور الذي يوصلها بدوره إلى جاره. وكان الأخير يقول عندئذٍ بصوتٍ مرتفع: «لقد سمعتها: قبطشَر دانوا»، ويكون هَرَجٌ ومَرَجٌ عامَّان، وكان غلمان أولو قحّة خصوصية، أو بنات جريئات، يفهمون بالطبع شيئاً غير لائق، مثل: «يُنزل في سراويله شيئاً جميلاً»، أو: «يذهب مع الكلاب ليتغوّط معهم في الأزقة»، وكان الأولاد يضحكون ويَصفِرون من المتعة.

فهل مضى وقت طويل على هذا، يا تُرى؟ إلاّ أنَّ الجملة التي كان الأولاد يهمسون بها بصوت كالصفير تغيَّرت إلى حدٍّ ما!

---

(١) من الضروري هنا لفت نظر القارئ إلى خصوصية اللغة الألمانية وهي إدماجها للصفة والموصوف والمضاف والمضاف إليه في كلمة واحدة قد تصل أحياناً إلى طول مضحك كما في هذه اللعبة. وهذه الخاصة لن تتجلى في الترجمة العربية إذ يضطر المترجم إلى تفكيك الكلمة المركّبة ذات الطول المفرط لأن العربية لا تقبل هذا الأسلوب.

«المترجم»

وقد وصف هذا الأديب الروسي أنطون تشيخوف، وهو أستاذ في فن النكتة في قصته القصيرة «الحَفَش[٢]» وصفاً ممتعاً إذ يقول:

وكانت جماعة الاحتفال تستعجل وجبة الغداء، وكان القوم قد باتوا يشمون الرائحة الواعدة - إذ كان يجري تحضير الحَفَش. وكان ربّ المنزل، الذوّاق المستمتع، يمرُق من خلال باب المطبخ، ويُصدِر، حين يبصر السمكة الفخمة، صوت المتلمِّظ، العالي، وتمطّقه المفتون.

وتتجمّد دائرة المحتفلين، وحين يعود إلى الدخول من جديد يلاحظ نظرات السيدات الغاضبة، وغمزات السادة بعيونهم، أتراهم يقولون إنه أظهر لخادمة المطبخ ذات الجسد الانسيابيّ المتلئ القويّ مشاعرَه الطيبة الملموسة لمسَ اليد؟ ولم يُجدِ ربَّ المنزل تأكيده وتصريحه المُلِحّ على أن تمطُّقه لم يكن يُقصد به سوى لحم الحفَش اللذيذ.

وسرعان ما استعرت النار التي كانت تنتشر كالسيل، وجعل القوم يتهامسون، وقد باتوا يعرفون أن هذا كان موجوداً منذ عهد بعيد! وقالوا إن هذا يمثّل علاقة وطيدة! وإنه لا بدّ للزوجة المسكينة أن تحتمل هذا كله! ووصل الخبر إلى الجهة الرسمية التابع لها وانتشر في المدينة - ووُجِّه إلى المسكين اللوم ودُمِّر.

وهذه - حتى اليوم أيضاً - سلسلة «البريد الهادئ»!

وتسمع المصادر التي يقال إنها حسنة الاطلاع بشيء من هذا وتكوِّن لنفسها حكماً، ويتحدّث أولئك الذين يتمتعون بـ «خط ساخن» إلى الصحافة وإلى وسائل الإعلام. ويظل الغذاء الجديد يضرم نيران

(٢) حيوان بحري كبير يعيش في المحيط الأطلسي.
«المترجم»

الرواية الرخيصة، وهكذا تنتشر الشائعات بسرعة الريح: غَزَل - قفزة جانبية - علاقة - خيانة - جنسيّة مثليّة - ولكن أين كانت تكمن النواة الصغيرة للحقيقة؟ وكلما ازداد نجم الرجل التماعاً، وبات أكثر شهرةً، ازداد أولئك الذين يشاركون في جولة التهامُس في «البريد الهادئ» التي ماعادت اليوم هادئة على الإطلاق،

فلتستعرض ذات أفراد عائلتك ومحيطك المهني ومحيط أصدقائك!

«ما الأمر؟ لقد أصيب السيد مولر بالدُّوار - في المتّجَر؟ أتُرى هذا انقلب رأساً على عقب، ببساطة؟ ربما كانت نوبة يسيرة...؟ أو كان هذا بالطبع مقلقلاً منذ عهد بعيد، ولا يكاد يستطيع أن يحرّك ذراعيه وساقيه...؟ يا إلهي، إنها حالة تستوجب الرعاية، ياله من أمرٍ مريع...!»، في المقعد المتحرك إلى الأبد؟ مشلول من المقطع العرضي. ما عاد يستطيع أن ينطق بجملة؟ ويعاني أيضاً من مرض ألتسهايمر...؟ ويكون في «البريد الهادئ» هو المحطة النهائية.

والآن يلتقي المرء بالسيدة مولر.

يا إلهي، كم يعدُّ هذا رهيباً! لقد سمعتُ من قبل! لقد أصبح زوجها مشلولاً من المقطع العرضي، ويعاني من مرض ألتسهايمر...»

«يا إلهي، يا لها من مصيبة رهيبة! لقد سمعت! زوجها مشلول من المقطع العرضي، ويعاني من مرض ألتسهايمر...»، والسيدة مولرغاضبة ومتذمِّرة بحق، وقد خرجت عن طورها «كيف تستطيع أن تقول شيئاً كهذا فحسب! فهذا شيء كله غير صحيح أبداً! وزوجي يذهب إلى مكتبه من جديد اعتباراً من الغد!».

والآن يأتي دفاعك المُحِقّ «غير أني سمعت هذا! لقد رَوَوْا لي مقدار سوء حاله، وأنه لا بُدَّ له أن يقعد في الكرسيّ المتنقل، وأنه لا يتحدّث إلاَّ بجهد بالغ، وهنالك قلت في نفسي إن هذا كالحال التي يوجد فيها عمي، وهو لا يمكن أن يكون إلا شللاً من المقطع العرضي».

فهل يعد هذا الآن عذراً؟

كلاّ، بل هو وضع متوسط. فقد كان الواحد من الناس يصغي، كشأنه دائماً، نصف إصغاء وأضاف في خياله الخاص إلى ذلك بعض الأمور: «ومن الممكن أن يكون هذا على هذه الصورة... وهذا يبدو مثل...»، ويستعمل الفرد التالي هذه التكهُّنات بصفتها وقائع. وبموجب مبدأ كرة الثلج ينشأ عن هذا كتلة ثلج منهارة تتنامى على نحوٍ مطّرد.

والناس لا يكذبون.

فقد سمعوا شيئاً ما واستنتجوا منه استنتاجات معيّنة ينقلها الراوي بدوره للآخرين على أنها حقائق، والسامع التالي يفعل الشيء ذاته.

وليس من الضروري أن تكون المسألة حالة مَرَضيّة على وجه الخصوص. ففي غمرة اللغط والثرثرة في خصوصياتٍ غير ذات شأن، في المكتب والمقصف تروي الآنسة ماير الصغيرة وهي تقهقه، أن الرئيس الذي لا يمكن الاقتراب منه في البهو، قد لامس ذراعها... وينشأ عن ذلك، في «البريد الهادئ»، رجل الملذات أو زير النساء، الذي قبّلها، ودفع بها إلى حجرته، وكاد يغتصبها فوق مكتبه.

وليس من النادر أن تتنامى هذه الحكايات إذ يغذيها الملل وحب الحماسة، والحسد ونزعة الشر، إلى أن تصل إلى أحد أجواء الخصوصيات وتزعزع الروابط أو تفسدها. وكل امرئ يستطيع أن يقول: «ربّاه، لم أكن أنا الذي فعل هذا! بل سمعت هذا من السيد (أ) بصورة قطعية تماماً!».

أما السيد (أ) فيقول: «ولكن السيد (ب) هو الذي قالها لي، فهو يعرفها على وجه الدقة، لأن السيد (ج) روى ذلك على المائدة...».

وما من أحد كان هو الفاعل وحده، وما من أحد كذب كذباً مباشراً. وما سمعه فلان من الناس بشطرٍ من أذنه يزيّنه خياله الخاص، إلى حدٍّ ما، في اللاشعور، مسترسلاً فيه، ولكن كلاّ، فهذا الواحد من الناس ذاته لم يكن الفاعل، بل لم يَكُنْهُ بالفعل.

وصحافة قوس قزح تعيش من أمثال هذه الحكايات، حكايات «البريد الهادئ» والمصوّرون يجرون وراء أمثال هذه الصور.

والرجاء أن تفكر بإيجاز في احتفال مؤسستك الأخيرة، وفي حلقة البحث الخاصة بمتابعة التثقيف، وفي أي مؤتمر كان، وقد أُلحقت به مأدبة، وفي اجتماع لاتحاد من الاتحادات، فأنت تؤخذ مائة مرة بين الذراعين من قبل امرئٍ ما، ويتم تبادل قبلات التحيّات وقبلات الوداع. وعند الرقص تضغط إحداهن بجسدها ضغطاً شديداً على السيد (س). وعند شرب الخمر يداعب أحدهم بيده، بصورة مختلسة، السيدة (ع). ومن حسن الحظ أنه لم يتوافر لديك، لا الحافز من أجل «بريد هادئ»، ولا أمكن أن تتحول كرة الثلج المضحكة إلى كتلةٍ من الانهيار الثلجي.

غير أنك ترى، في كل يوم، أمثال هذه الصور لأشخاص معروفين أو شخصيات بارزة في الجريدة - وإذا هنا علاقة جديدة، أو سبب راجح للطلاق أو حالة حَمْلٍ ممكنة من قِبَل من يقف إلى جانب المرأة المصوَّرة.

أما الكتّاب أو المصورون في أمثال هذه الأعمدة، فلديهم العذر المبنيّ على وجهة نظر معينة: «كانت المسألة تبدو لي على هذا النحو - وكل شيء كان يشير إلى هذا - فقد كان يبدو من المؤكد، بلا ريب، أنَّ...» ويقول القارئ: هكذا إذاً، المسألة واضحة جداً!».

لقد كان يوجد، في أيام هوليود الكبرى، في الخمسينات، والستينات، اثنتان من كتاب الأعمدة يرتعد منهما كل النجوم والمنتجون، فَرَقاً، وهما: لويللا بارسون، وهيدا هوبر.

وكان في وسع كلٍّ من هاتين أن تحلّقا بمسيرة حياة الواحد من هؤلاء، وتدمِّرا ها بجملة واحدة. ولم يكن في وسع المرء أن يسكتهما أبداً، ولم تكذبا قطّ، وتكونان قد سمعتا لتوّهما شيئاً من زوايا مكتومة... ويكون أحدهم قد همس إليهما بشيء ما في خلوة...

٥ - معاذير الحب

وتعيش فروع المعلومات والتسلية كلها تقريباً من الموضوع الرئيسيّ في حياتنا: ألا وهو الحب. فالروايات والأفلام، من كل المستويات - من أكثرها ابتذالاً إلى أكثرها استيفاءً للشروط المثالية - تذكر الشعور الذي يدفع الناس بعضهم إلى بعض والنقطة الجوهرية، وعلّة السعادة القصوى والألم الأعمق. وكل المتغيّرات، وأشكال التصعيد، والهُوّات،

ترجع إلى هذا الجذر. وهناك بالطبع أيضاً تلك المتغيرات التي تكون مطبوعةً ببواعث أخرى، فالرغبة في السلطان، أو المال من البواعث الشديدة الهيمنة هنا. والتعصب الديني والسياسيّ، وحبُّ البشر القائم على الخدمة، والرغبة التي لا تشبع، في المعرفة والبحث، هي عند كثير من الناس أشدُّ تميُّزاً وبروزاً من مشاعر الحب.

ولكن الناس كلهم تقريباً يعرفون اللقاء بإنسان، ذلك اللقاء الذي كان على الأغلب حاسماً، لا يُنسى - أي كان حدثاً جوهرياً في حياتهم، وفي كثير من الأحيان يقترن هذا بمخرج مرير أو حزين، كما ينبئ عن ذلك ارتباط كائن بين كلمتين، القلب والألم. وما أكثر ما يسمع المرء بشريكين يشكوان بعد فترة من الارتباط بينهما، من خيبة الأمل، والغضب والاستياء، قائلين:

«لقد كان فيما سلف بالغ الرقة...»

... وكان يتحدّث إليّ عن كل شيء، وكنت أستطيع أن أحدِّثه عن كل شيء، وما عاد هناك شيء من ذلك، وما عاد هناك بعدُ سوى عمله، وهمومه، واستيائه...»

... ما عدتُ أثير اهتمامه على الإطلاق، وليس لديه وقت من أجلي...»

... ما عدتُ أعرفه على الإطلاق، لقد تغيَّر تغيُّراً هائلاً...»

أما هو فيقول:

«كانت فيما مضى بالغة الفتنة، والإشراق، واللطف، وكانت مستعدةً أبداً للرقة والملاطفة...»

... كانت مهتمة كل الاهتمام بكل ما أقول، وكانت تشارك في عملي. أما اليوم فلا تزيد على أن تعيب عليّ عملي، هنا أو هناك...»

... لقد أصبحت تجنح إلى الإساءة إليَّ بقارص الكلام، وتعيِّرني وتشتمني، وليس لديها اهتمامات باستثناء الأطفال والتلفزيون...»

... ماعدت أعرفها أبداً، لقد تغيّرت تغيُّراً هائلاً...» فما هو الصحيح؟

أيَصُحُّ ما يدعيه هو، أم ما تقوله هي؟

أم أن كليهما يستخدم المعاذير فحسب، لتبرير برود المشاعر أمام نفسَيْهما وأمام الآخرين؟

وما الذي تغيَّر، يا تُرى، عند كثير من الأزواج؟ وهل باتوا أناساً آخرين بالفعل؟ أم تُرانا نحن الذين تغيَّرنا؟

والرجاء أن تعود أدراجك إلى نقطة الانطلاق في هذه العلاقة. ولن يكون من العسير عليك أن تتذكر على الفور تمكّن المشاعر من النفوس. فما الذي حدث هنا؟ إن كل الهوائيات (الآنتينات)، عند كل البشر، تتوجه في مرحلة الحبّ، أو الهيام الشديد، نحو الآخر - ببساطة كاملة، كما يحدث في النوم، وكل الإشارات التي تتصل بلغة الجسد تتوجّه نحو اللفتات، والوقفة، واللهجة، ومحاكاة الكلام بالإيماء، واللغة، وتصدر عنها ردود الأفعال على النحو الذي يروق للشريك، فهي تعجبه بالكيفية التي تتحرك بها، وتضحك، وتتحدث، وترتدي ثيابها، في أعمق أعماقه - وإلا لما كان مسحوراً إلى هذا المدى! بل ربما وجد من قبلُ أمثال أولئك النسوة الفظيعات!

وهو يظهر مسترخياً، متثاقلاً، أو عدوانياً. أو مفرطاً في التواضع، كما تحبه هي، أن يكون - ولا تحب ذلك إلاّ فيه - وينشأ من كلا الجانبين هذا الشعور السماويّ، الذي يُصاغ شعراً، ويُغنّى، ويُرْسَم، ويُعدُّ أعلى سعادة على وجه الأرض. أما مسألة أن الرغبة والعاطفة الجامحة، أو الرقة والأحاسيس الأكثر عمقاً على الإطلاق، أو الفهم واستجابة كل منهما للآخر، كل هذا كان يحتلّ المرتبة الأولى، فقد كان الواحد منهما يتلقّى صدىً معيّناً على الدوام لكل ما كان يبعث به، وكان هذا المتلقي يعطي على الدوام رجع الصدى حين كان الآخر يبعث إلينا بدوافع أخرى، وكانت كل هوائيّاتنا موجهة صوب (الأنْتَ)، وكل الأشعة التي كنا نبعث بها كان يعكسها (الأنْتَ) على الفور، وحتى حين يتخذ المرء رأياً مضاداً - فقد كنا نغدو، في إطار تأثير هذا الصدى، أجمل، وأجدرَ بالمحبة، وأكثر ميلاً إلى الحديث، وأكثر إمتاعاً، وأحرى أن يرغب الآخر فينا، وساحرين فاتنين - بل كنا، ببساطة، فريدين.

أما التوكيدات من قَبيل: «أنتِ الأجمل، والأكثر ذكاءاً، والأكثر غَلَبةً وتمكُّناً - وما من امرأة تَعْدِلُكِ!» و: «أنتَ الأورع، والأكثر روعةً والأعظم والأكثر براعةً - وما من رجلٍ يَعْدِلك!، فهذا لم يكن بالأكاذيب، ولا المخادعات، ولم يكن دَجَلاً، من أجل الظَّفر بالشريك، أو الشريكة، والاستئثار بهما: فالواحد منهما يعتقد ذلك اعتقاداً! وهو على يقين منه، والانعكاس في الآخر يثبِّتنا، ويردُّ ذلك إلينا في صورة صدى رائع.

لقد جعل منا الشعور الذي نسميه بالحب، في البدء الرؤية مشرقة صافية والسمع صافياً جلياً، حيال كل الاستعدادات التي تكمن في (الأنتَ). وفيما بعد، حين تملأ خيبة الأمل نفوسنا بالمرارة، نقول «الحب يُعمي البصر» ألا فكلاّ!.

لقد وضعنا الحبُّ على الجانب المقابل الذي نُقبل عليه، بإحساس دقيق مرهف، ومنحنا كلَّ ما يفتن الآخرين ويسحرهم منّا، ولمّا كان الجانب المقابل لدينا يفعل الشيء ذاته، ويبسط كل إمكاناته وأعطياته أما منا، نحن الذين نتقبَّل ونحن سعداء، فإنَّ كلاً منا يقف في النور، ونحن نستشعر، ونتذوَّق ونتلمَّس، ويحقّق كل منا ذات صاحبه على نحوٍ متبادل.

والمعاناة، والشعور بالمرارة لا حدود لهما، حين يبرد هذا الصدى الباعث للسعادة، وينتابه الشلل، ويتفتّت، ويموت.

فنحن ما عدنا ننادي الصدى، وما عدنا نبحث عنه.

نحن ما عدنا نسمع ونرى ما يبعث به الآخر.

ونحن نقول، مفعمين بالألم، مفعمين بالغضب:

ألا ليتني أحسست، في قرارة نفسي، بأنه سيغدو على هذه الصورة ذات مرة! وليتني لاحظت قبل ذلك، ماهيته وجوهره الحقيقي! لقد كنت بالغ الغباء، بالغ العمى، سعيداً كل السعادة بالثقة التي عندي!».

أو:

«كيف أمكنني أن أكون غبيّاً إلى هذا الحدّ، منْبهرَ البصر إلى هذا المدى! ألا ليتني رأيت قبل ذلك كيف كانت بالفعل!»

ولكن:

ما زال هو ذاته يتصف بالصفات ذاتها التي أسعدتها أيَّما إسعادٍ ذات مرة!

وما زالت هي ذاتها تتسم بالخصائص ذاتها التي كان متيَّماً بها ذات مرة!

فهل غيّرا، هو أو هي، على مرِّ الزمن، وجهة نظرهما، وهل غاب عن ذهن كليهما، خلال السنين الطويلة المشتركة، ما كانا تعلَّماه، وهو أن يوجِّه كلٌّ منهما هوائيّه نحو الآخر، ويستقبل الصدى؟ أوَليس من الممكن، أو من الواجب، أن يحاول إعادة البُزالَيْن الحلزونيين اللذين أفرطا في شدِّهما نحو الأعلى، بينما كانا يوجّهان الاتهامات، إلى أسفل، ويتابعاهما إلى البدايات، وأن يحاول كلٌّ منهما اكتشاف الصورة الأصلية مجدَّداً؟

فلنحاول ذلك ذات مرة. لقد انعقدت آصرة الزواج في ظلِّ وجهة النظر الخاصة بالحب. وكان كلاهما يرى صاحبه على النحو التالي:

كانت هي، بالقياس إليه	*وفيما بعد بدت له:*
قابلة للتأثُّر	تعاني من شيء ما
ذات نزعة أمومية	ذات اهتمام مبالغ فيه
مُبْدعة	غريبة الأطوار
حساسة	عاطفية إلى حدٍّ مزعج

كان هو بالقياس إليها	*ثم أصبح يبدو لها:*
متفائلاً	مرتفع الصوت
شديد الحزم	لا يتراجع
متفوقاً	مفرطاً في النقد
من أهل الفكاهة	يجنح إلى قارص الكلام

وفي إطار الحب يعدُّ هذا التصعيد مريراً بوجه خاص، فلتَشُدَّ البُزال إلى الوراء! وذلك أن الجذور هي ذاتها، ولقد سبق أن ميَّزناها ذات مرة بوضوح بالغ، على أن الزمن شجَّع ظهور العواقب السيئة، ولكن ألا ينبغي لنا نحن أيضاً أن نتابع بُزالنا بردِّه إلى الوراء من جديد؟ فربما كانت شكاوانا عندئذٍ، أيضاً، مجرّد معاذير وربما كنا نحن الذين تغيَّرنا...؟

على أن البُزال ينشأ أيضاً في إطار روابط أخرى، جمَّة العدد. فهذه أمّ تعيش مع ابنتها غير المتزوجة أو المطلّقة، وهذا يمثل اجتماعاً أليفاً وثيق العرا.

الأم:

كانت بالقياس إلى الابنة:	*ثم أصبحت تبدو لها:*
أنيسة، مؤتمنة	متطفّلة
تلقائية، عفوية	عصبية ، عَجُولاً
مُسَلِّية	فضولية.

الابنة:

كانت بالقياس إلى أمها	ثم *أصبحت تبدو لها*:
حامية	مُستَحوذة
ذات سيادة	متمسِّكة بموقفها مصرَّة عليه
مشرقة، طلقة الأسارير	متبجِّحة.

وفي إطار المهنة أيضاً يمكن لرابطة أن تؤدي إلى ألوان من الشقاء لها شأنها، ومثال ذلك ما يحدث بين شريكتين في المهنة، بين محاميتين، أو ممارستين في الطب، أو مالكتين لمحل يبيع الملابس الجاهزة ولوازم الخياطة:

الكبرى سناً

كانت بالقياس إلى الصغرى سناً: ثم أصبحت تبدو لها:

ودودةً، مُجاملة	حريصة على منفعة نفسها
ساحرة	باردة وصريحة
حسنة التعامل في مسائل المال	محنكة في تعاملها في مسائل المال

الصغرى

كانت تبدو بالقياس إلى الكبرى سناً: ثم أصبحت تبدو لها:

مبدعة	مجنونة
تنطوي على أسرار	لا يمكن تقدير ردود أفعالها سلفاً
منغلقة	صعبة المراس

وعندما تنحلُّ عرى الشراكة المهنية، لأن «الأمور ما عادت تستقيم...» أو لأن الأمور تكشَّفت عن صورة مختلفة...». يكون كلا الشريكين قد نسيا، في كثير جداً من الأحيان، السمات المشتركة أو المكمِّلات التي كانت تَهَبُ لهما ذات مرة جناحَيْن يحلِّقان بهما.

٦ - معاذير المرآة

وثمة عذر آخر يستعمل في الكثير جداً من الحالات يعد مألوفاً لدينا جميعاً، فما ننظر إليه على أنه صورتنا في المرآة يؤوّله الآخرون على أنه صورة مشوَّهة. وعندما نقول: «ولكن أنا لست بهذه الصورة على الإطلاق فقد كنت أريد في الحقيقة، بلا ريب...» يكون هذا في الحقيقة، وفي كثير من الأحيان، الجذر الذي تقصد به الطبيعة أن يكون جذرَ شخصيتنا، ومع ذلك فالبيئة تتلقى صدى مختلفاً.

أنـا	*الآخـرون*
أعدُّ نفسي:	لا يروننني على هذه الصورة، بل يروننني:
متسامحاً	لا مبالياً
نائياً بنفسي عن الآخرين	لا يتعامل مع الأشخاص لذواتهم
ودوداً، مجاملاً	ليس له موقف معيّن
دبلوماسياً	تقليدي، توافُقيّ.

على أن موقفنا الذي لا يدلّ على «تمالك النفس، والذي يدلُّ على عدم الإيمان، والمتمثّل في نحو قولنا «ولكنني في الحقيقة...» إنما يتم تقييمه على أنه اعتذار عن كوننا أناساً غير ذوي جدوى. والرجاء أن تلاحظ: أقوالاً كثيرة التواتر مأخوذة من محيطك، مثل:

«لقد تغيّرت كثيراً!»

«في الماضي لم تكن على هذه الصورة»

«ما عدت أعرفك على الإطلاق!»

«ما الذي صرْتَ إليه فحسب!»

فأمثال هذه الأقوال يفترض أن تحملك على التفكير، ما هي الخصلة المقصودة هنا، وما هو نوع التغيّر في شخصيتك؟ كيف كنت إذاً في تلك الأيام؟

وفي بعض الأحيان تكون هذه التصريحات ذات مقصد إيجابي بالفعل، ويفترض أن تُستخدم حافزاً لردّ البُزال الخاص إلى الوراء. فالحبّ الجديد، والمحيط الجديد والبيئة الجديدة، تُحْدِثُ في كثير من الأحيان صدى جيداً. هنالك تُرْهِف أذنيك كيلا تخسر.

٧ - معاذير التزلُّف

متى يجوز للمرء أن يستعمل معاذير التزلُّف والمجاملة. إنها تمثّل بالطبع، نوعاً من الحساب والتقدير! وهي مبنية على الرويَّة والتفكير، والتخطيط، ويمكن تعبئتها، من دون أي عقبة من أجل المنفعة الشخصية. على أن مدى التوتر كبير جداً. فالمرء يريد شيئاً من الآخر. أما المتغيّر البريء فهو في الاستعمال اللغوي: التماس الجو الملائم «إنه التزلف ومسح الجوخ» و«المجاراة في القول والجري في أعقاب الأخرين» كما يرد ذلك في التعبير غير المهذب، وكل هذا يعني، بأسلوب متفاوت في الغلظة، أن يستخدم المرء كلمات ألطف ولهجات متملِّقة بل

عبارات كاذبة كي يستميل إليه الطَرَف الآخر وذلك في الحقيقة من الأدنى إلى الأعلى، وتعد معاذير التملق هذه على الأغلب واسعة الانتشار في قطاع التعليم والتدريب والدعاية، وفي مجال المهن. فمن عساه يقول إنه يجد الرئيس مثيراً للاشمئزاز، وجوَّ العمل رديئاً حين يسأل عن ذلك، غير أنه يريد و يجب عليه أن يظل في موضوعه بصورة مطلقة؟

ومن عساه يقول إنه توقع في الحقيقة مركزاً أفضل كثيراً ودخلاً أعلى، ولكن كل المحاولات باءت بالإخفاق ولم يبق أمامه سوى مرسى الإنقاذ هذا؟

ومن عساه يقول إنه حين ينظر عن كثب يرى عِشرة شريكه منفِّرة لا تطاق ومع ذلك فهو يحتمل العِشرة البخيلة النزاعة إلى المشاكسة أو الثقيلة الظل ببساطة بكل ما فيها حفاظاً على السلام العزيز؟

والرجاء أن لا تشبه هذا بالاعتذار الرحيم الرفيق من المرضى أو حتى المعرضة حياتهم للخطر. هنالك تكون المعاذير ضرورية!

كلا، ففي معاذير التملق والمداراة المرتبطة على الأرجح بالمهنة يعتبر الانطباع الطيب الذي يُحدثه المرء حاسماً كل الحسم غير أن هذه المعاذير صعبة إلى أقصى الحدود!

- إلى أي مدى يجوز لي أن أكلف الآخر؟
- متى يمكن للطرف الآخر أن يسيء الظن أو يتشكك؟ ومتى أطلق سهمي في النهاية بثنائي، في دقة الشعرة، نحو الهدف؟
- كيف أظل مع إقراري بالجميل في إطار شخصيتي وكياني؟

والرجاء أن تلاحظ:

أن النموذج الذي هو أقرب إلى أن يكون وجيز الكلام، وأكثر تحفظاً والذي يريد التصريح بالثناء ويضطر إليه إذا ما أراد أن يصل إلى هدفه ـ ينبغي له أن يفكر فيما يلي:

من أجل الحكم يفضل اختيار أمثال هذه الكلمات:

ـ المحترم جداً والمستوجب للتحية.....»

ـ الذي يفوق التوقعات.....»

ـ وبذلك يستطيع المرء أن يحيا حياة طبيعية ويقبل ذلك....»

ـ فلا ريب في أن المرء سيتقبل ذلك....»

وحتى إذا كنت في الحقيقة تنزع إلى التشاؤم ولم تكن متحمساً على الإطلاق: فإن الشخصية لها أهميتها بالقياس إليك! ولابد لك أن تكيف مشاعرك وأن تكون شخصية حسنة!

ولكن:

عليك أن تظل دائماً في إطار إمكاناتك كي تخلّف في نفوس الناس أثراً يحمل على التصديق، وتظل على هذا. وسيكون من الخطأ كل الخطأ بالنسبة لهذا النموذج ومن المجانب للطبيعة أن تتحدث عن «الروائع» و «الفريد» و «الحلم» و «تحقيق كل الرغائب» والشيء الذي «ليس فوقه شيء» فهذا خليق أن يحدث أثراً عكسياً لدى الطرف الآخر.

فائدة:

يجب عليك أن تستعمل لمعاذير التملق كلمات أو مفهومات تستخدمها أنت أيضاً عندما يروق لك بالفعل شيء ما أو يتماشى مع تصورك:...

إنه إنسان متعاطف إلى أقصى الحدود ومن المستحب جداً أن يعمل المرء معه ـ هناك تواصل جيد بيني وبينه ـ وثمة أساس للثقة المتبادلة...» وهذا التصريحات المعبِّرة عن أقصى درجات الثناء من جانبك تعد بمثابة معاذير التملق القابلة للتصديق.

ومثال ذلك في حالة الحديث عن انطباع إجمالي:

..... إنه يحدث انطباعاً يدل على أنه قادر على الدفع إلى حد بعيد ويمكن الثقة به وأنه صاحب ذوق يبعث على الثقة وهذا انطباع ثابت خالص من الشوائب وهو خليق أن ينسجم معي إلى حد بعيد ويمكن أن يعوِّدني على الانسجام والتكيف مع أحوال جديدة على نحو جيد وأن يجعلني أقف على قدميّ.....» وهذا الشيء يمكن أن يصدقك المرء فيه لأنه شيء يتماشى مع ثروتك اللغوية «الطبيعية» وطريقتك «الطبيعية» في التعبير، حتى وان كان هذا مجرد معاذير تملق وتزلف. وبالطبع فالنموذج المفعم بالحيوية الذي سرَّه الاسترسال في الحديث تتوارد على لسانه جمل وكلمات أخرى للإعراب عن حماسته وموافقته فهنا يكون من الأولى أن نجد مما يقبل التصديق عبارات من قبيل «رائع كل الروعة ـ رائع فريد ـ ممتاز، درجة أولى» إذ يكون المرء «متحمساً إلى آخر حدود الحماسة مستسلماً كل الاستسلام وما كان المرء ليحسب أبداً أن هذا ممكن ـ وهو سعيد كل السعادة».

أما حين لاتزيد مثل هذه الشخصية التي يسرها في العادة أن تستخدم نعوت التفضيل القصوى «SUPERLATVE» على أن تقول: «أجل إنه لطيف جداً بالفعل - وحسن - ومع ذلك فأنا لا أستطيع قبوله - يعجبني حقاً - ولن تكون لي مشكلات معه. هنا لا يستطيع المرء في الحقيقة أن يقول شيأً ضده - ولاشك أنني سأشعر بالارتياح» فهذا شيء مفرط في الضعف من حيث كونه عذراً تملُقياً. وفي حالة إصدار الحكم الشخصي ستكون الحماسة القصوى من هذا الطراز أقرب إلى التصديق.

أنا خليق أن أكون مسروراً أعظم السرور بالعمل معك - وعلى هذا فمن ناحيتي أقول بسرور: نعم! - ونحن نستطيع، بلا ريب أن نتحادث في ذلك على الفور - أما ما يتعلق بي فقد حصل المطلوب الآن وأنا خليق أن أشرع في العمل معك بكل كياني - نحن متلائمان، منسجمان انسجاما حسناً ويمكن أن يكمل أحدنا الآخر.

مرة أخرى:

الرجاء أن تلاحظ:

لقد ركزت جهدك - تبعاً للنموذج وعن طريق ثروتك اللغوية «الطبيعية» بأسلوب إيجابي وبالثناء والموافقة على قطب معين حتى وإن كان انطباعك بعيداً عن أن يكون ساراً. فأنت تحتاج إلى هذا الإنسان ونواياه الطيبة والى هذه الوظيفة وهذا العمل وهذه الصفقة.

ومعاذير التملق - إذا استعملت على نحو جيد وبطريقة هادفة ليست بالأكاذيب المباشرة وهي تُهدي - في بعض الأحيان - تحياتها إلى منشهاوزن أوشفايك أو تلِ أو أُوْ يلينشبيغل! فلا تستعملَنَّ مبالغاتٍ غير

قابلة للتصديق وأدخل عقلك في هذه المسألة. وأفضل ما تفعله أن تفكر بصورة مسبقة بما تستطيع أن تقول له «إذا كان هذا ممكناً» وما يسر الآخر سماعه «إذا كان هذا ممكناً أيضاً».

مثال عملي:

أعترف بأنني كنت أهدف إلى معاذير التملق وقد عبأتها بنجاح.

وحين كنت ممثلة شابة كنت أعيش في برلين الغربية وكانت إمكانات العمل محدودة جداً بعد الحرب فلم يكن هناك سوى القليل من المسارح ولم يكن هناك تلفاز ولا إمكانات لتنفيذ لقطات متزامنة ولا دعاية وعلى هذا فقد رحت أتنقَّل على طريقة الأوتوستوب منطلقة من هانوفر على مدى أربعة أسابيع في أنحاء ما تبقى من ألمانيا الغربية ذات الآمال المستقبلية الأوسع نطاقاً. وكانت الخطوط الحديدية مازالت أكثر خواء وأكثر أمنا. وكان كثير من المسافرين على طريقة الأوتوستوب يحاولون أن يظفروا بقطار يأخذهم - إذ كان المال قليلاً في أيدي الناس.

وعلى هذا: فقد كنت ألوح بيدي وابتسم وتتوقف سيارة

«هل يمكنك التفضل.....»

وإذا هو بالغ الكرم

«أجل أستطيع أن آخذك معي حتى جوتنجن».

وأرتقي السيارة وتكون الدقائق الخمسة الأولى حافلة بالانفعال. ويكون هناك مرة أخرى رجل مسافر وحده يعمل في مهنة وأبدأ بقولي: «المنظر الطبيعي بالغ الحُسْن! لم يسبق لي قط أن أتيت إلى هنا، وكل هذا لا أعرفه أبداً».

«أنا أسافر خلال هذه المنطقة كل ستة أسابيع، وعن الشمال توجد غابة إيشبرغ وهي غابة خضراء بالغة الحسن ثم تأتي سيمنغن وهناك في «غروبناوم» يوجد أفضل عجة بيض، هاها...» وإذاً فالسائق يهوى الثرثرة. رائع. وتكون أول استراتيجية هادفة للتملق، بينما كنت انظر حواليَّ في السيارة معجبة وكنت أفعل هذا في كل سيارة.

هذه عربة حديثة الطراز تماماً! فهي تنطلق بسرعة خرافية! وهي جديدة كل الجدة، أليس كذلك؟ وكانت بوابات العبور مفتوحة. وقبل ذلك كانت السيارة عندي هيكلاً يجري على أربع عجلات وشيئاً فشيئاً أصبحت خبيرة وكان معظم السائقين وكلاء وأؤدّي واجب الاعتراف بأن القوم يستطيعون أن يتحملوا نفقات سيارة جميلة كهذه، في هذه الأيام....

«أجل ألاترينَ، لم يكن هذا أبداً بالأمر السهل وكانت البداية بعد الحرب. فقد أستدعيت إلى خدمة العلم عام /١٩٤٠/ وكنت في كتيبة المشاة رقم /٢٤٥ / وكان ذلك في فرنسا أول الأمر ثُم.....».

وأرجع بظهري إلى الوراء مستندة إلى المسند مطمئنة. وفي الدقائق العشرين التالية لا أحتاج إلا إلى أن أواكب حديثه بعبارات مثل:

«واعجباً كلا.. أجل، إن مثل هذا... لحقيقة.....»

وكذلك تمضي معاذير التملق في المرحلة الثانية بسلاسة كاملة «ثم أنشأت بعد الحرب كل شيء وحدك تماماً؟ لاشك في أن هذا كان شاقاً جداً....».

«لقد بدأت بعد العام /٤٥/ بداية صغيرة تماماً، وكان ذلك صعباً عليَّ للغاية ... ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ ـ ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢... وأصغي وتتولاني الدهشة وأتذمر أو أنفعل أو أتحمس..... وأشارك بحيوية وأفكر قائلة: رائع!

مازال هناك سبعون كيلومتراً إلى جوتنجن، وهناك يجب عليَّ النزول في فندق بونكر الصغير، وسوف تكون النقود كافية بشق النفس. أما استراتيجية التملق رقم /٣/ فناجحة أيضاً. وأشير إلى الصورة الصغيرة عند لوحة المفاتيح: لعبة تتألف من ولدٍ صغير ودبٍّ، شأن كل الأطفال.

«أما إن هذا الجميل، أَوَهذا ولدك الصغير؟»

«أجل ولدي فولفغانغ أتعرفين أنا لست بالأب المغرور ولكن طفلاً رشيقاً لطيفاً كهذا....» وأطَّلِعُ على كل شيء عن فولفغانغ، ثم يقول: «أما إنكِ لكثيرة التفهم والذكاء،إني لأتسلي أيمَّا تسلية معك! ماذا تقولين في الحقيقة في التدابير الأخيرة التي اتخذتها الحكومة؟ وهذا سري! فيما بيننا...».

والآن يأتي الموضوع الذي يخشى منه وهو السياسة. ماذا يعني؟ وأية تدابير؟ وأفكر وأنا متشنجة أَوَيكون هذا الرجل من أنصار الحزب الديمقراطي المسيحي، أم من أنصار حزب ألمانيا الاشتراكي؟

«إنها الحرية الشخصية وما من شك في أن هذا حاسم في النتيجة النهائية، وعلى هذا تتوقف المسألة!» وأقول هذا بجرأة المستيقن كل اليقين لأن هذا ما يدَّعيه كل امرئ في كل خطبة. «أنت تقولين هذا! وعلى هذا فلو شئتِ أن تسمعي رأيي..».

«أنا أريد سماعه بالطبع وما من شيء يهمني أكثر من ذلك وجوتنجن ما عادت بعيدة. ويتأثر السائق.

إنه لمِمّا يثيرني رؤيتي لمدى الحَدْسية التي تنظر بها النساء في مسائل السياسة الكبرى!

هل تعلمين.... أن زوجتي... التي من المؤسف أنها لا تستوعب من هذا إلا القليل. أجل، فيما مضى، ولكن اليوم...، لقد مضى على زواجنا أربع سنوات..» والآن تغدو المسألة حرجة. ففي الزواج يكون هناك دائماً شيء ما صعب، ولمّا كنت بلا ريب ذات قدرة على تلمس مشاعر الناس وكنت باعثة للحماسة إلى حد بعيد وكثيرة التفهم...

وأصيح بحيوية وحرارة وأنا مفعمة بالسرور: «أه... جوتنجن! ما هي إلا هنيهة وتكون في جوتنجن! فلو تفضلت بإنزالي في مكان لوقوف السيارات؟».

«لقد ورَّطتك في حوار طويل.... كلاّ، هنا أنطلق بك بسرعة إلى قلب المدينة - إلى المحطة أليس كذلك؟».

وأبتسم شاكرة، السيارات والمنازل وقلب المدينة، وفي صباح الغد أجرب حظي في المسرح. وكنت قد لبثت أربعة أسابيع أتنقل وأنا في الطريق وكانت معاذير التملق تفعل فعلاً جيداً جداً وحصلت في النهاية

على التزام. وأنّى لي، لولا هذا، أن أتمكن من مواعيد مقابلاتي من دون نقود؟ لقد أصبحت الأيام مختلفة بالمناسبة فما كنت اليوم لأنصح أحداً يسافر على طريق الأوتوستوب وقد تولت طبع تجاربي في تلك الأيام بعد عودتي بالمناسبة وعلى الفور، جريدة برلينية وكان عنوان المقالة: «مجموعة قواعد السلوك للمسافرين على طريقة الأوتوستوب».